

شعرية تداخل الأجناس في رسالة ابن زيدون الجديّة

م. د. مثنى رحيم فرحان الجياشي

مديرية تربية المثنى

lajaeshae@gmail.com

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٦/٢/٥

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٦/٣/٢٩

الملخص

تهدف هذه الدراسة الموسومة بـ (شعرية تداخل الأجناس في رسالة ابن زيدون الجديّة) إلى تحري قضية تداخل الأجناس في الأدب الأندلسي، لما لها من أهمية بالغة في الدراسات الأدبية والنقدية، كونه يجمع بين شتات الآداب وتركيباتها في نص أو مجموعة نصوص معينة؛ لبيان من خلالها مظاهر الحضور والغياب فيها، ما بين الشعر والنثر بشتى أنواعه وأشكاله، ولما حوته من أجناس متداخلة بين الشعر والنثر والحكم والأمثال عن طريق تفصيلها وتحليلها، وبيان أثرها الكبير في هذا التداخل، ولا سيما كاتبها متمكناً من أصول الكتابة، وأشهر ممن عُرف بهذا الفن في عصره، وجاءت هذه الدراسة مقسمة على التعريف بالشعرية قديماً وحديثاً، فضلاً عن بيان مفهوم الأجناس وتداخلها، وآراء النقاد فيه وبيان أهميته، وبيان هذا التداخل في هذه الرسالة عن طريق محورين هما، شعرية التداخل النثر مع الشعر، وشعرية التداخل مع الأمثال، ثم قفينا عن ذلك بخاتمة لحوصله بعض النتائج التي من شأنها تثري هذه الدراسة، وتكسيها البعد العلمي وقيمتها الأكاديمية.

الكلمات المفتاحية : الشعرية، تداخل الأجناس، رسالة الجديّة لابن زيدون.

The Poetics of Genre Interlacing in Ibn Zaydūn's Formal Epistle

Lec. Muthanna Raheem Farhan Al-Jiyashi

Al-Muthanna Education Directorate

lajaeshae@gmail.com

Date received: 5/2/2026

Acceptance date: 29/3/2026

Abstract

This study, entitled “The Poetics of Genre Interlacing in Ibn Zaydūn's Formal Epistle,” aims to explore the issue of genre interpenetration in Andalusian literature, given its significant importance in literary and critical studies. Genre interlacing brings together disparate literary forms and structures within a single text or a group of texts, allowing us to examine the manifestations of presence and absence among them particularly between poetry and prose in their various types and forms.

The study investigates the diverse genres embedded within the epistlepoetic, prose-based, moralistic, and proverbial—through close examination and analysis, highlighting their major impact on this interweaving. This is especially relevant considering that the author was highly skilled in the art of writing and was one of the most prominent practitioners of this literary form in his era. The study is divided into discussions of poetics in classical and modern thought, followed by an explanation of the concept of genres and their interrelation, the views of critics on this phenomenon, and its importance. It then analyzes the manifestation of this interlacing in the epistle through two main axes: the poetics of prose-poetry interweaving, and the poetics of interweaving with proverbs. The study concludes with a summary of the findings, which enrich the research and enhance its scholarly and academic value.

Keywords: poetics, genre interlacing, Ibn Zaydūn's formal epistle



شعرية تداخل الأجناس الأدبية

عُرفت الشعرية في بعدها الأدبي منذ عصور الأدب القديمة، وكانت واحدة من أهم المؤشرات على جودة النص الأدبي، إذ تتجلى في مفرداته التي تعبر عن هويته الأدبية، وأصبح معناها يعني قراءة (أدبية الأدب)، وإنّ أي عمل أدبي - شعراً كان أو نثراً- يرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة وفق نظامها الخاص، وهي نتاج لعناصر متكافئة، ومزيج من الاتجاهات والأقوال التي عبرت عن مكونات النص الأدبي، فضلاً عن خصائصه الفنية التي تبرزه، فقد ((بدأ مفهوم الشعرية يتأصل في النقد الحدائي مع الشكلايين الروس بدءاً من النصف الأول من القرن العشرين، وقد أحدث هؤلاء انعطافة جديدة في نظرية الأدب وبخاصة في تحليل النص الأدبي رداً على ما أحدثته الدراسات النقدية ذات التوجه السياسي المؤدلج من أزمة منهجية أدت إلى حالة الاغتراب عن النص الأدبي))^(١).

فقد عرفها (ياكسون) بأنّها ((ذلك الفرع من اللسانيات الذي يعالج الوظيفة الشعرية في علاقاتها مع الوظائف الأخرى للغة، وتهتم الشعرية بالمعنى الواسع للكلمة، بالوظيفة الشعرية لا في الشعر فحسب حيث تهيمن هذه الوظيفة على الوظائف الأخرى للغة، وإتّما تهتم بها أيضاً خارج الشعر حيث تعطي الأولوية لهذه الوظيفة أو تلك على حساب الوظيفة الشعرية))^(٢)، وأشار (تودوروف) أنّ الشعرية لا يحتكرها الشعر وحده بمعزل النثر، وبهذا المفهوم يقترب من شعرية (ياكسون) التي ((تكون متعلقة على الخصوص بأعمالٍ نثرية))^(٣)، فضلاً عن كشف الخصائص والقوانين التي تحدد أدبية الخطاب الأدبي، ف((دلالة الشعرية ليست السمة الشعرية للنصوص الشعرية فحسب؛ بل استتباط القوانين والقواعد الداخلية للخطابات الإبداعية، أي خصائص الأنواع الأدبية، والنظم التي تكون عليها))^(٤)، فتكون اسم لكل ما له صلة بالإبداع الأدبي سواء أكان شعراً أم نثراً، وهذا يكون عن طريق اللغة المتوارية التي تكمن خلف كلمات النص، ولا تحصر عملها في الأعمال الفردية، ولا تهملها بالوقت نفسه؛ بل ينصب اهتمامها بالخطاب الأدبي وقوانينه، فموضوعها هو مجموعة الإجراءات التي تحدد الأدبية، وهو يبدو الأقرب في الشعر والنثر.

أما كمال أبو ديب فقد أشار إلى بنية الشعرية بوصفها ((خصيصة علائقية، أي أنّها تجسد في النص لشبكة من العلاقات التي تنمو بين مكونات أولية سمتها الأساسية أنّ كلاً منها يمكن أن يقع في سياق آخر

دون أن يكون شعرياً، لكنه في السياق الذي تنشأ فيه هذه العلاقات، وفي حركته المتواشجة مع مكونات أخرى لها السمة الأساسية ذاتها، يتحول إلى فاعلية خلق للشعرية ومؤشر على وجودها)) (٥)، فهو أشار إلى مجموعة الخصائص الأدبية الخاصة بالشعر والنثر على السواء تتمظهر عنده في خروج النص من اللغة التقريرية إلى اللغة المجازية، وهذا هو مفهوم الشعرية، فمزية النص يكون مترابط الأجزاء ومتجانس الألفاظ.

تعد قضية الأجناس الأدبية من القضايا النقدية المهمة في الدرس النقدي، فقد حظيت بعناية بالغة من لدى الفلاسفة والبلاغيين، قديماً وحديثاً، لاسيما عند أرسطو وأفلاطون، نظراً لتعكس الواقع آنذاك، بوصف أن لكل جنس أدبي خصائصه التي تميزه عن غيره من الأجناس، فهي القوالب الفنية الخاصة التي تفرض بطبعها على المؤلف اتباع طريقة معينة، فمثلاً يتبع المؤلف طريقة خاصة حتى يعالج في شكل تمثيلي نفس الموضوع الذي قد يعالجه آخر في قالب خطابي (٦)، وكان الشعر يحظى في المرتبة الأولى، ولكن تطورت هذه النظرة في العصر الحديث بتطور الأجناس الأدبية، وفي هذا الصدد يرى الناقد بروننتير أن ((الأجناس الأدبية تولد ثم تنمو ثم تكبر ثم تشيخ ثم تموت وقد يتولد عنها جنس آخر)) (٧)، ومن هذا المنطلق ندرك أن الجنس الأدبي يطرأ عليه بعض التطورات والتغيرات بحسب العصر ومع تقدمه، ولذلك نرى مثلاً هيغل من بين الذين رفضوا انفصالية الأجناس الأدبية عن بعضها البعض إذ ((قسم الشعر إلى نوعين ملحني وغنائي يسبق أولهما (الملحني)، وثانيهما (الغنائي)، وينتمي تداخلهما إلى نوع ثالث هو الدرامي، كما أن الشعر الدرامي نوعان أو شكلان مأساة وملهاة ينتهي تداخلهما إلى شكل ثالث هو الدراما الحديثة)) (٨).

أمّا قضية تداخل الأجناس الأدبية من أهم قضايا الدرس النقدي المعاصر، إذ شغلت الدارسين العرب والغربيين قديماً وحديثاً ونظرتهم لظهور أشكال كتابية جديدة، وأعمال أدبية مختلطة تكون منفتحة بانفتاح الممارسات النصية والقرائية المختلفة، فقد عالجه أرسطو في كتابه (فن الشعر) متحدثاً عنها بإسهاب فكري ومعرفي واسع ينم عن مدى أهميتها البالغة في حقل النظرية الأدبية، وإن الاختلاف بين الفنون يكون باختلاف المادة، واختلاف الموضوع، واختلاف الطريقة، ولكل جنس خصائص مختلفة (٩)، كما تناولها أيضاً الناقد الفرنسي فردينان بروننتير في اتجاهه ودراساته النظرية المتعلقة بطبيعتها... فقد تحدث عنها المفكر الإيطالي بندتو كروش في نطاق حديثه عن النظرية الأدبية، معتبراً ((أن الأجناس الأدبية لا توجد بينها فواصل مثلما تحدث عنها وتطرق لها أرسطو قديماً)) (١٠)، كما يدعو تودوروف إلى تداخل الأجناس الأدبية في كتابه النظرية

الأدبية، حين تطرق إلى أصل الأجناس الأدبية فيقول: ((الجنسان الأدبيان الأساسيان للقرن التاسع عشر: الشعر والرواية، اللذان لم يعودا في نظرنا الآن جنسين بالمعنى نفسه، يتفككان فيما يظهر على الأقل في الإنتاج الأدبي (المعتبر)، هذا ما أشار إليه موريس بلانشو في معرض كلامه عن كاتب يتصف بالحدائثة هو هيرماك بروش، الذي قال عنه "لقد عانى مثل كتاب آخرين في عصرنا، من هذا الضغط الجارف للآدب لم يعد يسمح بالتمييز بين الأجناس الأدبية وكان عليه أن يكسر الحدود))^(١١) .

ومن بين النقاد الذين دعوا إلى تداخل الأجناس فيما بينها كروشه فهو يرى أن ((الناقد لا يحفل سوى بعاطفة الشاعر في صورتها الغنائية، وهو في نظره أن المسرحيات والقصص يجب أن تقرأ على أنها مجموعة نصوص غنائية تشف عن مشاعر فردية، وقيمتها في تصوير هذه المشاعر... وهو في نظره هذه يحو الفروق بين الأجناس الأدبية))^(١٢)، ومعنى ذلك أنّ المضمون النصي هو الغالب في العملية الإبداعية على الشكل (الذي اهتم به القدماء)، فقد يكون التخلي عن الفصل بين الأجناس الأدبية بعضها عن بعض علامة حداثة أصلية لدى كاتب ما، فقد ظهرت تداعيات كثيرة جراء تداخل الأجناس الأدبية في النص الأدبي، فأصبحنا اليوم نقرأ لنص لا نعرف أصله، هل ينتمي لقصة، أو شعر، أو مسرح ف((العديد من الكتاب تمردوا على الأجناس الأدبية ولم يحترموا الخصائص وسماتها... وهي من نتائج مرحلة التجريب الإبداعي الذي جاء مع مطلع القرن العشرين، فأصبحت عدة أجناس متداخلة فيما بينها داخل جنس أدبي واحد، مثلما حدث للرواية الجديدة والمسرح المعاصر، وبالتالي فإن موضوع الأجناس الأدبية لازال يطرح إشكالا بالنسبة للنقاد والمنظرين، مما يبين مدى أهمية هذا الموضوع ضمن النظرية الأدبية بشكل عام))^(١٣)، فالامتزاج والتلاقي بين الأشكال الأدبية، لا سيما عندما يجتمع الشعر مع النثر، أو بين الرواية والشعر، الأسطورة والحكاية يخلق تنوعاً وغنى في النص الأدبي، وهذا التداخل يكون ناجحاً عندما يكون ناتجاً عن استخدام تقنيات متعددة تتم عن توجه فني يهدف إلى إثراء النص .

شعرية تداخل الأجناس في رسالة ابن زيدون الجدية

عرف العرب فن الترسل منذ القدم، وقد نال شهرة واسعة لدى جميع طبقات المجتمع من الذين اهتموا بهذا الفن، ومنه الرسالة الجدية لابن زيدون التي انمازت بنسيجها الأدبي بما أضفت أنامل كاتبها من مهارة إبداعية

جعلتها تمتاز بمجموعة من الخصائص ومنها شعرية التداخل الأجناسي وهو موضوع بحثنا، وإن دلّ هذا فإنه يدل على اتساع ثقافته الأدبية شعراً ونثراً، فهو يزيدنا حسناً وجمالاً عندما يزينها بأبياتٍ شعرية وأمثالٍ وغيرها، وإنها وردت في سياق ألزمه بأن يخرج نص الرسالة عن الأطر المعروفة آنذاك، فلم يجعلها رسالة شعرية خالصة أو نثرية خالصة فقد حشد فيها جملة من الفنون الأدبية المعروفة، وقد رصدنا هذه الفنون، فهذه الملكة الأدبية التي إنماز بها ابن زيدون نالت استحسان النقاد القدامى والمحدثين فقد نعته ابن بسام قائلاً: ((فرع أدبه، وجاد شعره، وعلا شأنه، وانطلق لسانه، فذهب به العجب كل مذهب، وهون عنده كل مطلب))^(٤)، ووصفه أيضاً بأنه: ((خاتمة شعراء بني مخزوم، وسع البيان نظماً وشعراً، إلى أدبٍ ليس للبحر تدفقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقتترانه، وحظ منه النثر غريب المباني، شعري الألفاظ والمعاني))^(٥)، وقد ذكره الصفي في شرح رسالته الجديّة قائلاً: ((هو ذو الوزارتين، الكاتبُ المجيد، المفيد، الناظم النائر، البليغُ المفوّه اللسن...))^(٦)، وكان يسمى بحتري المغرب لحسن ديباجة لفظه، ووضوح معانيه، وقد اختلفت طريقة كتاباته عن الكتاب الذين عاصروه، لذا راقت استحسان جميع الناس سواء كانوا حكّاماً أم أمراءً وغيرهم، فإذا كتب مادحاً فلا يباريه أحد، وإن جال بقلمه هاجياً فلا يحتمل.

أقام ابن زيدون رسالته على عدّة محاور رئيسية، أهمها بمدح الحاكم ابن جهور والإشادة بمكانته، وإظهار معاناته الشديدة داخل السجن، والبراءة من الذنب الذي وشي به عند ابن جهور، فضلاً عن ذم الوشاة والمفسدين الذين كانوا سبباً لسجنه، وتأكيديه المستمر بالوفاء والبقاء على العهد، وتعلقه بحبل المودة، وإبراز التجلّد والصبر والاعتزاز بالنفس.

أولاً : التداخل مع الشعر

يمثل هذا التداخل من أبرز مظاهر التداخل مع الأجناس الأدبية إذ نجد بين ثنايا الرسالة أبياتاً شعرية سواء كانت من شعره أم لشعراء آخرين قدامى أو معاصرين له، وظفها في طياتها المرسلّة منه وهو داخل السجن، فقد مكث فيه حوالي (٥٠٠ يوم) بأمر من الحاكم أبي الحزم بن جهور، والمتتبع بعناية لها يجدها قد احتقت المعاني الكثيرة التي أوضحت عن وضعه المزري، وكذلك تجلّى فيها استعطافه؛ وهو يرجو منها أن تنتج عن قبول الحاكم إخراجه من السجن، لاسيما أنّه ابن الأكرمين الذي وصل الطموح ولا سيما السياسي إلى أن يقع

في وحل السياسة، لكن لم يدم هذا الحال فقد نال ما أرادته وهو الخروج منه على يد ولي العهد الذي تسلم زمام الحكم فيما بعد، ومما لا شك فيه أن التداخل بين طيات الرسالة كان له مقاصد وغايات، وإنه في موضع طلب الشفاعة والاستعطاف من ابن جهور، فالبناء النثري المتصل مع الشعر المنقطع إلى شطرين ذات لغة موزونة وتفعيلات دالة على المفردات المختارة من قبل الشاعر، ومن الأمثلة على ذلك قوله: يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، ومن أبقاه الله ماضي حد العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة، إن سلبتني أعزك الله لباس نعمائك وعطلتني من حلى إيناسك، وأظمأني إلى برود إسعافك، ونفضت بي كف حياظتك، وغضضت عني طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد باستحمادي إليك، فلا غرو قد يغص الماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتى الحذر من مأمنه وتكون منية المتمني في أمنيته والحين قد يسبق جهد الحريص .

كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى وتهون غير شماتة الأعداء^(١٧)

القارئ لهذا النص يلحظ أن الكاتب حريص على تسليط الضوء على كل ما يتعلق به، فالمقام هنا والغرض هو الشفاعة والاستعطاف لابن جهور؛ لأن تعداد الظلمات أبلغ وأجلب للرحمة، وأدل على التوجع، إذ وظف البيت الشعري للشاعر عبد الله بن محمد المهلبي بن أبي عيينه وهو خارج جنس الرسالة بما يخدم مقصده وغاياته التي يرمي إليها وهو خروجه من السجن، وهو يشير إلى أنّ شماتة الأعداء تكون أشد وقع الرماح والسهام عليه، فضلاً عن مرارة السقم وأرمه عليه، فهو يعلم بخطط أعدائه وخفاياهم ونواياهم الخبيثة التي تزرع الفتنة، ولا شك أنّ هذا التمازج بين فن الشعر والرسالة له دلالاته، فبناؤه النسق النثري المتصل مع الشعر المتكون من شطرين وبتفعيلات لها دلالاتها التي تعبر عن المفردات المختارة من قبل الشاعر، ولعل ما يعين على فهم مقصدية البيت ودلالاته السياقية في الرسالة مساهمته في التعبير عن نظرة الكاتب للمخاطب بأسلوب جمالي أكثر قوة وورصانة.

ومن الشواهد الأخرى على ما وظفه ابن زيدون في سياق رسالته من شعر استشهاده ببيت لأبي تمام، إذ يقول: ((وإنّي لأتجدد وأرى للشامتين أنّي لريب الدهر لا أتضعض، فأقول هل أنا إلا يد أدامها سوارها، وجبين

عض به إكليله، ومشرقي ألقى بالأرض صاقله، وسمهري عرضه على النار مثقفه، وعبد ذهب به سيده
مذهب الذي يقول :

فقسا ليزجره ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم^(١٨)

عمد ابن زيدون إلى توظيف هذا البيت الشعري لأبي تمام لمناسبته عرضه إشارة منه على الموافقة الكبيرة التوافق التي كانت بين جده وأبيه مع عائلة آل جهور من جهة أمه ، إذ أصبحوا يملكون ثلث قرطبة، وهذا ما صرح به الكثيرون ، فدلالة الحزم غالباً ما تكون بالزجر، ومن خلال هذه القوة يمكن للإنسان أن يمارسها مع أقرب الناس إليه وهم أبنائه أو تلاميذه الذي يتعلمون على يديه أو من كانوا ضمن رعايته من إخوانه الصغار ، أو زملاء العمل، لكنه مع هذا يرحمهم ويبحث لهم عن الخير أينما كان، فقد يسعى من خلاله إلى تحريك مشاعر ابن جهور واستمالاته لإطلاق صراحه، والناظر في هذا التداخل في الرسالة وما حملته الألفاظ في ثناياها من بلاغة، وجمال، وجزالة في المعاني التي عبر عنها يعد عاملاً من عوامل استثارة المتلقي، وجذبه للتفاعل مع معاني الرسالة ، وهذا سر شعرية النص.

ومن الأمثلة الأخرى يلحظ استعانة ابن زيدون لبيت من شعر المتنبي، إذ يقول: ((هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع، ولن يريني من سيدي إن أبطأ سيبه أو تأخر غير ضنين غناؤه، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها، وأثقل السحاب مشياً أحفلها، وأنفع الحيا ما صادف جدبا، وألذ الشراب ما أصاب غليلاً، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب الحمد لله على اهتباله، ولا عتب عليه في اغتفاله .

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن أوف^(١٩)

داخل ابن زيدون في هذا النص من رسالته بين النثر والشعر عندما استعان ببيت المتنبي قاصداً به تذكير ابن جهور بكثرة فعله الحسن وإن إساء له في هذه المرة ، وفي الوقت نفسه يعذره عن هذا الفعل، فهو يرجو بهذا الاعتراف استمالت قلب الحاكم ورقته، فالقارئ يرى تداخل النثر مع الشعر بقصد من الكاتب فإنه لم يرض أن يبقى على وتيرة واحدة من الكتابة، فأشرك معها الشعر لما له فائدة في بيان المعاني المرادة ولا سيما عندما يضيق بالنثر إيصالها واستيعاب المراد، فيكون الدور على الشعر بأوزانه وقوافيه وإيجازه، وكثافة عباراته فيلخص

المقصود بأقرب إشارة، وألطف عبارة، فتداخل الرسالة مع الشعر دلالة على إنَّها شديدة الحرص على أن تكون لغتها جميلة مثقلة بالصور الشعرية التي تقترب من المعنى المراد والقريب لدى المتلقي، إذ يبدو أن الكاتب لا يريد من رسالته أن تكتب بلغة نثرية بسيطة؛ بل أراد منها أن تكون على تماس مع الشعر الذي من شأنه تعزيز المعنى وتعميقها في نفس المتلقي، وهذا مؤداه إضفاء الشعرية.

وفي موضع آخر يستشهد ببيت من الشعر للبحثري، يقول فيه: ((وأعودُ فأقولُ: ما هذا الذنبُ الذي لم يسغه عفوك، والجهلُ الذي لم يأت من ورائه حلمك، والتطاول الذي لم تستغرفه تطوُّك، والتحامل الذي لم يف به احتمالك؛ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين عدلك؟ أو مسيئاً فأين فضلك؟ .

إلا يكن ذنبُ فعلك واسعُ أو كان لي ذنبٌ ففضلك أوسعُ))^(٢٠)

يلحظ في هذا النص أن ابن زيدون يخاطب ابن حزم على مدى الذنب الذي ارتكبه لكي لا يشمل عطفه وعفوه؛ لأن عدلك أوسع وأشمل، وماهي إلا وشاية من حاسدٍ مغرض، فهو بذلك سعى إلى تثبيت المعاني التي تحملها فضائله، فقد حرص هنا على بيان قدرته الكتابية شعراً ونثراً على حدٍ سواء، وقد رأى مناسبة هذا بيت البحثري لسياق رسالته، فضلاً عن ميزة لغة الشعر بالقوة والكثافة والدقة والاختصار ((فإتساع هذا النص بمقامات تلفظية متعارضة مع طبيعة النص الأصل (الرسالة = النثر) واستجلاب مقاطع من جنس آخر (وهو الشعر) فساهم في تكسير أحادية الملفوظ الأصل (الرسالة) ويحد من نقاءه معياريته))^(٢١)، ومما لا شك فيه أن هذا التداخل من شأنه ترسيخ المعنى وتقويته، وهنا تكمن جمالية التعبير التي تضيف إلى شعرية النص الشيء الكثير، لتحقيق جمالية أخاذاة تستميل المتلقي للانسجام مع جو الرسالة ومضامينها.

ومن أمثلة على ذلك ما وظفه ابن زيدون في سياق رسالته من شعر استشهاده ببيت، إذ يقول: ((ورجمَّت الكعبة ، وصلبتُ العائذ بها على الثنية، لكانَ فيما جرى عليّ ما يحتمل أن يُسمى نكالاً، ويدعى، ولو على المجاز عقاباً،

وحسبُك من حادثٍ بأمرئٍ ترى حاسديه له راحميناً؟))^(٢٢)

فكيف ولا ذنب إلا نميمةً أهداها كاشخ، ونبأ جاء به فاسق، وهم الهمازون المشاؤون بنميم، والوشاة الذين لا يلبقون أن يقرعوا العصا...))^(٢٣)، يستمر ابن زيدون في الإعلان عن وضعه النفسي المتأزم غلبة الوشاة وخطتهم المسمومة، فما أفسى حاله عندما يرحمه حسّاده، ويمكن أن يلحظ تداخل الشعر مع النثر في هذا النص مما شكل شعرية أثرته، فضلاً عن التناسب بين نص الرسالة والبيت الشعري المستشهد به للشاعر العتبي بما يعني حسبك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذي كان يحسده ينقلب راحماً له، فهذا التداخل أخرج نص الرسالة إلى دائرة الأثر الجمالي، وحالة من الإخبار إلى حالة التأثير الفني، فالتمازج بين الشعر والنثر سر من أسرار الجمال ورونق وقوة ومعاني.

وفي موضع آخر نلاحظ تداخلاً في طيات الرسالة بين الشعر والنثر ببيتين من الشعر للبحثري جاء فيها : ((والله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية إليك، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك، ولا أزمعت يأساً منك مع ضمان تكلفت به الثقة عنك، وعهد أخذه حسن الظن عليك ففيم عبث الجفاء بأدمتي، وعاث العقوق في مواتي وتمكن الضياع من وسائلي، ...

ألسنت الموالى فيك غرّ قصائدٍ هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجماً

ثناء يُظل الروض منه منوراً ضحى، ويخال الوشى فيه مُنمنماً^(٢٤)

يلحظ في هذا النص أن ابن زيدون استشهد بالشعر تدعيماً لحجته وتأكيداً على ما قاله لا سيما القسم الموجه لابن حزم بأنه لم يخذله ولم يعمد إلى التواني في خدمته، فهذا التداخل الأجناسي بين الشعر والنثر جعل من رسالته أن تكون أكثر إيغالاً ووصولاً إلى الهدف المرجو منها، كذلك يجعل لغتها لا تكون مجرد سطحية، وإنما لغة تميل إلى التكتيف، والإيجاز، وخلق مساحات من الصور الإيقاعية عن طريق الأوزان الشعرية للأبيات التي جمعها خط محوري تضمن الشفاعة والاستعطاف والظلم الذي لحق به نتيجة فعل فاعل، مما أدى ذلك إلى تعزيز الدلالة في إطار جمالي فني يثير المتلقي، ويرسخ المعنى في نفسه، وهنا تتجلى شعرية النص، كما هو الحال في استشهاده ببيتين للأعشى الكبير قائلاً: ((وهل لبس الصباح إلا برداً، طرزته بفضائك، ...، وتقلدت الجوزاء إلا عقداً فصلته بمأترك، واستملى الربيع إلا ثناء أملاته في محاسنك، وبث المسك إلا حديثاً أذعته في محامدك، وإن كنت لم أكسك سليباً، ولا حليتك عطلاً، ولا وسمتك غفلاً؛ بل وجدت أجراً وجصاً، فبنيت

ومكان القول ذا سعة، فقلت حاشا لك أن أعد من العاملة الناصبة، وأكون كالذبابية المنصوبة تضيء للناس وهي تحترق...

مصارعَ مظلوم مجرماً مسحبا

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى

يُكُنُّ ما أساء النَّارَ في رأسِ كَنْبِها))^(٢٥)

ويُدْفَنُ منه الصالحاتُ وإنَّ يُسيء

يستمر ابن زيدون في ذكر مناقب ابن حزم وفضائله لاستماله بالعطف وإخراجه من السجن معضداً لهذه الفكرة بأبيات شعرية وافية بالغرض المقصود منها، متناسبة معه، متمشية مع السياق، لا تكاد تجد غيرها يسد مسدّها في موضوعها، وهذا دليل على فطنته العالية، وثقافته الواسعة في الاطلاع على دواوين الشعراء، فكل بيت أورده كانت له مناسبة خاصة استفاد منها في كتابة الرسالة، مما جعل جنس الشعر يضيفي جماليات تركيبية بنائية، وسمات ترتقي بالرسالة إلى الشعرية.

ثانياً: تداخل الرسالة مع الأمثال

تُعد الأمثال من الفنون الأدبية المعروفة، ومن مظاهر استلهام التراث العربي القديم في النص الأدبي، وإنّ بثّها في النصوص الأدبية يعد من روافد شعرية الرسائل، كما أنّه وسيلة مهمة من وسائل إقناع المتلقي؛ لما إنمازت به من عمق الدلالة ووضوح المعنى بأقل عدد من الألفاظ فيجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، وهي إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية^(٢٦)، وتعد مرآة صادقة تعكس مواقف الإنسان وأفكاره ببيئته، وتجسد مدى ارتباطه بها، وهي كما يصفها البعض بأنّها تلعب دور القوانين، يؤمنون بها لما لها من تأثير على سلوكهم، وتصح عن عاداتهم حتى قيل عنها: إنّها تُعد نجوماً في أفلاك البلاغة، دائرةً وألفتها الأسماع، وجُبلت على الميل إليها القلوب والطباع، وسارت بها الركبان في البلدان، وأجمع على اختيارها أرباب البلاغة والبيان، فطرزوا بها حواشي كتبهم، ورصعوا بها جواهر فضليهم وأدبهم، وفضلوها على سائر أبيات القصائد^(٢٧)، وهذا دليل على أنّها مرآة صادقة تنقل صور الأمم وأدبها وحوادثها، وتجسد كثيراً من تجاربها في مختلف العصور؛ لما تقدمه من خدمة الغرض المقصود، إذ تعد مادة تراثية تزيد من جمالية النص الأدبي وتمنحه بهاءً ووضاءةً. وابن زيدون واحد من الكتاب المبدعين الذين استعانوا بالأمثال، وأدخلوها في كتاباتهم كما هو الحال في رسالته الجدية، فمقاطعها وتركيبها لا تخلو منها التي تكون مناسبة لسياقها أو

المعنى الذي يقصده، ومما لا شك فيه أن توظيفه للمثل كفن أدبي مستقل عن الرسالة تارة ما يورد المثل بأكمله، وتارة يكون بإشارة له بالمعنى، لأنها تكون شاهداً على المعنى المقصود، فضلاً عن زيادتها للمعنى وضوحاً وجمالاً، فلم يشأ أن يجعل من رسالته مجرد سجعات متلاصقة، مما يجعل تركيبها جامعاً بين فنين وإن كانا متباعدين لكنهما التقيا في نسيج واحد، وقالب جديد صنعه ابن زيدون، ويمكن أن نقف على بعض الشواهد لنماذج من رسالته.

ومن الأمثلة على ذلك قوله : ((هَذَا إِلَى مُعَالَاتِي بَعَلَقِ جِوَارِكِ، وَمَنَافَسَةِ بَلْخَطَةِ مِنْ قُرْبَتِكَ، وَاعْتِقَادِي أَنَّ الطَّبْعَ فِي غَيْرِكَ طَمَعٌ، وَالغَنَاءَ مِمَّنْ سِوَاكَ عَنَاءٌ، وَالبَدَلَانَ مِنْكَ عِزٌّ، وَالعِفْوَضَ عَنْكَ لَفَقَاءٌ... كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الغَارِ، وَفِي كُلِّ الشَّجَرِ النَّارُ، وَاسْتَمَجَدَ المَرْخُ وَالعَفَّارُ، فَمَا هَذِهِ البِرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّكَ، وَالمَيْلُ مِنْكَ عَمَّنْ يَمِيلُ إِلَيْكَ؟ وَهَلَا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاؤُكَ فِيكَ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاؤُكَ))^(٢٨)

يلحظ أن ابن زيدون يفصح عن حالته النفسية المثقلة بالهموم والحزن، فجاءت عباراته مشحونة بأهوى عبارة الشجن، ومما زاد في ذلك، تداخله مع طيات رسالته ولا سيما في هذا المقطع جملة من الأمثال العربية، ملتزماً بصيغة بعضها الحرفية دونما تغيير في لفظها تارة، ومتصرفاً في بعضها الآخر منها ((البذل عوز، أو بدل أعور))^(٢٩)، و ((أعطاني اللفاء غير الوفاء))^(٣٠)، و ((كل الصيد في جوف الغار، وفي كل شجر نار))^(٣١)، و ((استمجد المرخ والعفار))^(٣٢)، فجاء هذا التداخل مع الأمثال بوصفها فناً مستقلاً بذاته من التوظيفات الإبداعية التي استثمرها ابن زيدون، إذ تعد ((مبعثاً للدلالات الموحية والمكتنزة، والرموز الخسبة، لما تحمله من طاقات وحمولات معرفية ترفد التجربة الشعرية))^(٣٣).

ومن الأمثلة الأخرى قوله: ((أُعِيدُكَ بِنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيهَمَ خَلْبًا، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَامًا، وَأَكْدَمَ فِي غَيْرِ مَكْدَمِي، وَأَشْكُو شَكْوَى الجَرِيحِي إِلَى العِقْبَانِ وَالرَّحْمِ، فَمَا أَبَسَسْتُ لَكَ إِلَّا التَّنَدْرَ، وَحَرَكْتُ لَكَ الحُورَ إِلَّا لِتَحِينٍ، وَنَبَّهْتُكَ إِلَّا الْأَنَامَ، وَسَرَيْتُ لَكَ إِلَّا لِأَحْمَدِ السَّرِيِّ لَدَيْكَ))^(٣٤)، يلحظ في هذا النص ومضات شفيفة لمجموعة من الأمثال تداخلت مع نص الرسالة، قد استعديت من عوالم مختلفة راكمت المعنى، وأباححت بهيجان مشاعر ابن زيدون، ذاكرًا لسيدة بعض آلامه داخل السجن، مؤكداً له بأنه لم يتحمل مرارة السجن، فالمتلقي يسمع إيقاعاً حزيناً عند قراءة هذه الرسالة، وجميعها تصب في مشرب الاعتذار، وهذه الأمثال ((كدمت غير مكرم))^(٣٥)، و ((حرّك

لها حوارها تحن^(٣٦)، و ((وعند الصبح يُحمد القوم السرى))^(٣٧)، فجاء هذا التداخل دليل على الحالة النفسية للكاتب تارة، وشاهد على مقدرته الفنية، وسعة اطلاعه على الموروث الأدبي القديم تارة أخرى، وهذا التمازج أضفى على الرسالة طاقة إيحائية تمنحها درجة عالية من الشعرية، ولم يضر الرسالة، بشيء.

ومن الشواهد الأخرى قوله: ((فقد يغصُّ بالماء شاربُه، ويقتلُ الدواءُ المسْتَفَى به، ويؤتي الحذرُ من مأمْنه، وأني لأتجلدنَّ فأقول: هل أنا يَدُّ أدماءِ سُوارِها، وجبينُ عَضه اكليلُه، ومشرَفِي أُلصقه بالأرضِ صاقله، وسهمهريَّ عَرِضه على النَّارِ مُثنيه، والغيثُ محمودٌ عواقبه، والنَّبوةُ (*) غمرةٌ ثم تنجلينَّ، والنكبةُ: سحابةٌ صيفٍ عن قريبٍ تَقشَعُ، وسيدي أنا أبطأ معذورٌ...))^(٣٨).

القارئ لهذا النص يلحظ التداخل بين نص الرسالة والأمثال، ففي قول المرسل (يغصُّ بالماء شاربُه)، فهو تحوير للمثل المشهور ((من فَسَدَتْ بَطَانَتُهُ كانَ كَمَنْ غُصَّ بِالماءِ))^(٣٩)، ويضرب به لمن لا دواء له فعادة يكون الماء دواء لمن يغصُّ بغيره فكيف إذ كان هو الذي يغصُّه فلا حيلة له، وهنا جاء المثل مطابقاً لما قصده، فجاء تشبيهه المخاطب لأبن جهور بالماء الذي فيه حياته، وفي قوله (يؤتى الحذر من مأمْنه) نستشف اجتراراً للمثل المشهور ((من مأمْنه يُؤتى الحذر))^(٤٠)، ويضرب به بأنَّ الحذر لا يدفع من هو واقع أصلاً، وإن سعى جاهداً في ذلك، فهو عمد إلى تقديم وتأخير في ألفاظه بما يخدم فكرته وسياق رسالته، وأنه لا يسلم وإن كان حذراً، وكأن الخطاب بدأ يتصاعد ويتصاعد حتى يبلغ ذروته حتى يصل بقوله (والنبوة غمرةٌ ثم تنجلي)، فهو تعالق نصي لفضاً ومعنى مع روح للمثل ((غمراتٌ ثمَّ يَنجلين))^(٤١)، وتأتي دلالاته لمن يتحمل المصائب العظام، فابن زيدون يعلل نفسه بفسحة بأمل خروجه من السجن بعفو ابن جهور عنه كما في قوله (سحابة صيف عن قريب تَقشَعُ)، نلاحظ حضور المثل المشهور ((سحابةٌ صيفٍ عن قليلٍ تَقشَعُ))^(٤٢)، ويشار به سرعة زوال الخطر، فابن جهور سيعرف مكيدة الوشاة، وإنَّ العفو من شيمه، ومما لاشك فيه أنَّ هذا التداخل الأجناسي بين (الرسالة والمثل) كان خادماً لم يريد إيصاله ابن زيدون، فضلاً عن أنه خلق جواً ترفيهياً للمتلقي، كما زاد الرسالة ثراءً وغنى؛ ولو وظف شعراً أو قطعة نثرية أخرى لما بلغ ما يقصده، فالأمثال تختصر كثيراً من الكلام بسبب دلالاتها الموحية الغنية بالمعاني، وإيصالها دون عناء أو تكلف من قبل المرسل، فضلاً عما تستدعيه من حكايات وقصص.

ومما لا شك فيه أنّ توظيف الأمثال داخل الرسالة كشف عن أبعاد جديدة في بنائها سواء كانت بصيغتها المعروفة أم إحداث تغييراً عليها بالتحوير والتصرف, لأن لكل منهما مقوماته وخصائصه ومعاييره .

الخاتمة:

- شكل التداخل بين الأجناس المذكورة آنفاً (الشعر والمثل) في رسالة ابن زيدون الجدية قالباً جديداً له أبعاده الدلالة والجمالية.
- كشف هذه الرسالة عن ثقافة ابن زيدون وسعة اطلاعه على الموروث العربي القديم , وقدرته الإبداعية في كيفية التوظيف.
- جعل ابن زيدون رسالته موضوعاً لاستعطاف ابن جهور , وبيان مظلوميته, والكشف عن معاناته داخل السجن.
- من أدبية رسالة ابن زيدون أنّ القارئ يلحظ التماهي بين الأجناس المتداخلة بريقة لا تجعله يشعر بالانقطاع عند قراءتها, وبث فيها عنصر التشويق عن طريقة دلالة الفنون المتداخلة.
- مال ابن زيدون في رسالته إلى التكتيف وإيصال المعنى بأقل العبارات, والابتعاد عن الإسهاب والإطالة في الكشف عن المعاني العميقة المقصودة وهذا ما زاد في جمالياتها.

الهوامش

- ١ - النص الأدبي التشكيل والتأويل, سعاد عبد الوهاب: ٢٧٢. اطروحة متنى
- ٢ - قضايا الشعرية, ترجمة: محمد الولي: ٣٥. متنى
- ٣ - الشعرية, ترجمة: شكري المبخوت, رجاء بن سلامة: ٢٤. متنى
- ٤ - المتخيل السردي, عبد الله إبراهيم: ١٤٨. متنى
- ٥- في الشعرية: ٥١.
- ٦ - النقد الحديث والأدب المقارن, رامي فواز, دار حامد للنشر والتوزيع, عمان, ط١, ٢٠٠٨م: ٢٨٧.
- ٧ - تداخل الأجناس الأدبية في الرواية الجزائرية المعاصرة, دياب قنديد, مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر, جامعة اليرموك: ٣٨٩.
- ٨ - في نظرية الأدب, شكري عبد العزيز: ٨٣)
- ٩ - ينظر: فن الشعر: ٥٥.

- ١٠ - نظرية الأجناس الأدبية الرؤيا والاختلاف, السنوسي (مقاربات مجلة العلوم الإنسانية، العدد (٢٠:٤٥).
- ١١ - النظرية الأدبية , تودوروف: ٢١.
- ١٢ - الأدب المقارن, محمد غنيمي هلال: ١٣٦.
- ١٣ - نظرية الأجناس الأدبية , السنوسي: ٥٢.
- ١٤ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, تحقيق, د. إحسان عباس, دار الثقافة للنشر, بيروت - لبنان, (د. ط), (د. ت): ١ / ٣٣٨.
- ١٥ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ١ / ٣٣٦.
- ١٦ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون, الصفدي, تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, : ٦.
- ١٧ - م. ن: ٢٢,
- ١٨ - م. ن: ٢٢.
- ١٩ - م. ن: ٢٢-٢٣.
- ٢٠ - م. ن: ٢٣.
- ٢١ - سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون, جمال الدين بن نباته المصري, تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, دار الفكر العربي, القاهرة - مصر, (د. ط), ١٩٦٤م: ٣٧٧.
- ٢٢ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون, صلاح الدين الصفدي: ٢٤.
- ٢٣ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ابن بسام: ١ / ٣٤١.
- ٢٤ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون, صلاح الدين الصفدي: ٢٤ - ٢٥.
- ٢٥ - م. ن: ٢٥.
- ٢٦ - مجمع الأمثال, الأبو الفضل الميداني : ٦.
- ٢٧ - الأمثال والحكم, الرازي: ١٩ - ٢٠. أطروحة مثنى
- ٢٨ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون, صلاح الدين الصفدي: ٢٦.
- ٢٩ - مجمع الأمثال, الميداني: ١ / ١٥٧.
- ٣٠ - م. ن: ١ / ٣٣٣.
- ٣١ - م. ن: ١١/٣.
- ٣٢ - م. ن: ٢ / ٤٤٥.
- ٣٣ - التناص في شعر أبي العلاء المعري, د. إبراهيم مصطفى محمد الدهون: ٩٩. أطروحة مثنى
- ٣٤ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون, صلاح الدين الصفدي, : ٢٦.
- ٣٥ - مجمع الأمثال , الميداني: ١٧/٣.
- ٣٦ - م. ن: ١ / ٣٤١.
- ٣٧ - م. ن: ٢ / ٣١٨.

٣٨ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، الصفدي، تح: ٢٢.

٣٩ - مجمع الأمثال، الميداني: ٣١٧/٢.

٤٠ - م. ن: ٣١٠ / ٢.

٤١ - م. ن: ٥٨ / ٢.

٤٢ - م. ن: ٣٤٤ / ١.

المصادر والمراجع

- الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ط٩، ٢٠٠٨م.
- الأمثال والحكم، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت٦٦هـ)، صححه وعلق عليه: د. فيروز حريحي، تقديم: د. شاکر الفحام، منشورات المستشرية الثقافية، دمشق - سوريا، (د. ط)، ١٩٨٧م.
- تداخل الأجناس الأدبية في الرواية الجزائرية المعاصرة، دياب قنديد، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، جامعة اليرموك.
- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، الصفدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د. ط)، (د. ت).
- التناص في شعر أبي العلاء المعري، د. إبراهيم مصطفى محمد الدهون، عالم الكتب الحديث، أريد - الأردن، (د. ط)، ٢٠١٠م.
- الخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق، د. إحسان عباس، دار الثقافة للنشر، بيروت - لبنان، (د. ط)، (د. ت).
- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، جمال الدين بن نباته المصري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، (د. ط)، ١٩٦٤م.
- الشعرية، تودوروف، تر: شكري المبخوت ورجاء سلامة، الدار البيضاء، توبقال، د ط، د ت.
- فن الشعر، أرسطو، ترجمة وتعليق وتقديم: د. إبراهيم ماره، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر (د. ط)، (د. ت).
- في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان، ط١٩٨٧، ١م.
- في نظرية الأدب، شكري عبد العزيز الماضي، دار المنتخب العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
- قضايا الشعرية، رومان جاكبسون، ترجمة: محمد الولي، مبارك حنون، دار توبقال للنشر والتوزيع، دار البيضاء - المغرب، ط١، ١٩٨٨م.
- المتخيل السردية (مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة)، عبد الله إبراهيم المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني (ت٥١٨هـ)، نح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، (د. ط)، ١٩٥٥م.
- النص الأدبي التشكيل والتأويل، سعاد عبد الوهاب، دار جرير لنشر، عمان - الأردن، ط١، ٢٠٠٩م.
- نظرية الأجناس الأدبية، الرؤيا والاختلاف، (السنوسي) ٢٠١٥، مجلة مقاربات، العدد (٢١)، ٢٠١٥م.
- النظرية الأدبية، تودوروف، مكتبة الآداب القاهرة، (د. ط)، (ت. ت): .
- النقد الحديث والأدب المقارن، رامي فواز، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٨م.